المعرفة الحدسية المباشرة نفسيًا وفسيولوجيًا

Direct Intuition Psychologically and Physiologically

دكتور/ صلاح عثمان (أستاذ المنطق وفلسفة العلم – رئيس قسم الفلسفة –كلية الآداب – جامعة المنوفية – جمهورية مصر العربية)

Salah Osman

(Menoufia University, Egypt)

salah.mohamed@art.menofia.edu.eg

DOI: 10.13140/RG.2.2.29942.47685

مقال منشور في جزأين بموقع أكاديمية بالعقل نبدأ: القاهرة، ١٩، ٢١ يونيو ٢٠٢٢

With Mind We Start, Cairo, 2022, June 19, 21.

رغم تنوع مصادر المعرفة، ما بين حسية تجريبية وعقلية استدلالية وعقلية حدسية مباشرة، إلا أن هذه الأخيرة تكاد تكون سمةً مُميزة وفارقة للكشف العلمي، فلئن كان الكشف العلمي يخطو أولى خطواته بدهشة حسية، ويصاحب في طريقه نمطًا من أنماط الاستدلال العقلي المنطقي، إلا أنه في جوهره لا يعدو أن يكون قفزة حدسية مباشرة لا تُكتسب بالتجربة أو بالجهد الواعي للعقل. وما نعنيه هنا بالحدس هو تلك الرؤية الكلية المباشرة للمعاني العقلية المجردة، أو ما دعاه «إدموند هوسرل» Edmund Husserl (١٨٥٩ – ١٩٣٨) بالقدرة على إدراك الماهيات. وبهذا المعنى يمثل الحدس ضرباً من المعرفة الميتافيزيقية المجاوزة لإدراكات الحواس والنشاط الواعي للعقل.

يُعبِّر الرياضي الألماني «كارل فريدريش جاوس» Carl Friedrich Gauss (١٧٧٧ – ١٨٥٥)، الذي حاول لمدة عامين أن يبرهن على نظرية رياضية دون جدوى ثم نجح فجأة، عن ذلك قائلاً: «أخيرًا نجحت منذ يومين، لم يكن ذلك بسبب جهودي المضنية ولكن بفضل من الله. وكومضة برقٍ مفاجئة، حدث أن حُل اللغز، وأنا نفسي لا أستطيع أن أتكلم عن كُنه ذلك الخيط الهادي الذي يربط بين ما عرفته من قبل، وما جعل نجاحي ممكنًا».

كذلك لم يكن اكتشاف «آينشتاين» للنسبية سوى قفزة حدسية مباشرة يسبقها بعث حسي ويتبعها استدلال عقلي. حقاً إن «آينشتاين» لم يدخل معملاً قط، لكنه استفاد بالطبع من ملاحظات وتجارب سابقة، لذا كتب يقول: «إن غاية ما يصبو إليه الفيزيائي هو أن يصل إلى تلك القوانين الأولية

العامة التي يمكن أن يبني على أساسها صورة الكون عن طريق الاستدلال البحت. وليس هناك طريق منطقي إلى هذه القوانين، إن الحدس وحده، الذي يرتكز على الفهم المتعاطف مع التجربة، هو الذي يستطيع أن يصل إليها».

نستطيع القول أيضًا أن مراحل الكشف العلمي لنظرية الكم كانت في جوهرها سلسلة من الحدوس العقلية المباشرة، بدءًا من اشتقاق «ماكس بلانك» Max Planck (١٨٥٨ – ١٩٤٧) للصيغة الرياضية الحاكمة لإشعاع الجسم الأسود، ومرورًا بافتراض «لويس دي بروي» Louis de Broglie (١٨٩٢ – ١٩٨٧) لازدواجية طبيعة الإلكترون الموجية – الجسيمية، ووصولاً إلى مبدأي «اللايقين» Uncertainty Principle و«التمام» Complementarity principle لكلٍ من «فيرنر هيزنبرج» Werner Heisenberg (١٩٠١ – ١٩٧٦) و«نيلز بور» Niels Bohr (١٨٨٥ – ١٩٦٢). يتضح ذلك من أقوالهم التي وصفوا بها تلك الكشوف، حيث ذكر «بلانك» مثلاً أنه شعر كما لو كان قد توصل إلى كشف من الطراز الأول، ربما لا يضارعه إلا اكتشافات «نيوتن»، بينما علَّق «هيزنبرج» على اكتشاف «بور» لمسارات الكم الإلكترونية قائلاً: «إن استخدام بور للميكانيكا الكلاسيكية وميكانيكا الكم يُشبه تمامًا استخدام الرسام للفرشاة والألوان. بالطبع فإن أية صورة لا تتحدد من الألوان والفرشاة، ولكنهما لازمتان في إخراج ما يدور في مخيلة الفنان ... إن بوهر يعرف تمامًا تصرف الذرات أثناء الظواهر الضوئية، وأثناء التفاعلات الكيميائية، وقد أكسبته هذه المعرفة عن طريق الحدس تصورًا لتركيب الذرات المختلفة». أما «هيزنبرج» نفسه، فيصف الظروف التي أحاطت باكتشافه لمبدأ اللايقين قائلاً: «ربما كان الليل قد اقترب من منتصفه في ذلك اليوم الذي بدا فيه الحل قريبًا مني، حين تذكرت فجأة محاورتي مع آينشتاين، وخصوصًا قوله: إن النظرية هي التي تحدد ما نستطيع مشاهدته بالفعل. لقد تجلى لي على الفور أنه يتحتم البحث عن مفتاح تلك البوابة المغلقة في هذا الموضع، ولم يكن أمامي سوى القيام بجولة خلال حديقة الفاليه Fælledparken (إحدى حدائق مدينة كوبنهاجن)، مأخوذًا بالتفكير العميق في عواقب مقولة آينشتاين».

ماذا إذن عن كيفية القفزات الحدسية المباشرة؟ كيف يقوم العقل بتلك القفزات؟ وما الذي يضمن لنا صحتها؟ تستلزم الإجابة عن هذا السؤال أن نطرق أبواب علمي النفس والفسيولوجيا.

لعل عالم النفس السويسري «كارل جوستاف يونج» Carl Gustav Jung (١٨٧٥ – ١٩٦١) هو أول من تناول بالبحث ظاهرة الحدس كظاهرة سيكولوجية، دون أن تشغله الصراعات الميتافيزيقية في الفلسفة، وإن كان تفسيره العلمي لطبيعة الحدس وكيفيته يحمل في طياته نزعة ميتافيزيقية واضحة؛ ففي كتابه «الأنماط السيكولوجية» Psychological Types (١٩٢١)، يقترح «يونج» اتجاهين رئيسين للشخصية هما الانبساط والانطواء، إلى جانب أربع وظائف عقلية هي: الإحساس والتفكير والشعور والحدس. ومن تفاعل الوظائف العقلية مع الاتجاهين الرئيسين تنتج ثمانية أنماط

سلوكية، يدل كل منها على اتجاه معين ووظيفة عقلية معينة. وبالإضافة إلى ذلك توجد ثلاثة مستويات من الشعور، وهي الشعور الشخصي واللاشعور الشخصي واللاشعور الجمعي. وبهذه المفاهيم يمكن وصف أوجه النشاط النفسي المختلفة للفرد.

ويذهب «يونج» إلى أن الحدس كالإحساس، يُدرِك لا شعوريًا وبطريقة غير نقدية، لكنه يدرك الاحتمالات والمبادئ والتضمينات والمواقف ككل على حساب التفصيلات؛ أي أنه عملية تركيبية وليست تحليلية؛ وهو وإن كان يتسم بطابع اليقين، إلا أن الوظائف العقلية الأخرى قد تسهم في تعديله. هذا من جهة، ومن جهة أخرى تكشف التقسيمات والمفاهيم السابقة عن نمطين مميزين من الحدس: نمط انبساطي، يدرك مبادئ وإمكانات العالم الخارجي، ويستمد مادته من مجال التجربة الإنسانية الواعية؛ ونمط انطوائي يرقى بصاحبه عن معطيات الشعور، ليتبوأ مقعده بين أصحاب الرؤى الكشفية المباشرة. هذا النمط الكشفي وفقًا لـ «يونج» لا يمكن أن يستمد مادته من الحياة الشخصية للفرد، أو من الواقع النفسي الماثل للحياة. وبينما كان من المرجح أن يفسر «سيجموند فرويد» Sigmund Freud (١٨٥٦ – ١٩٣٩) هذه المادة بأنها تنشأ عن الطفولة المبكرة، فقد افترض «يونج» وجود مستوى أعلى للعقل أطلق عليه اسم «اللاشعور – أو اللاوعي – الجمعي». وهذا الأخير يشبه من عدة جوانب عالم المثل الأفلاطوني، أو العقل الموضوعي الهيجلي، فهو مصدر إنتاج الصور أو النماذج الأولية Archetypes التي تجلت بأشكال مختلفة في حضارات مختلفة، وشهدت بوجود مستوى عقلي مُنتج للأسطورة وشائع بين جميع الناس.

ويصف «يونج» كيفية القفزات الحدسية من النمط الكشفي بعبارات تذكرنا بمفهوم «الإرادة» عند الفيلسوف الألماني «آرثر شوبنهور» Arthur Schopenhauer (١٧٨٨–١٨٦٠)، حيث افترض الأخير أن الأفراد هم تجسيد لإرادة جوهرية كلية تقع خارج نطاق الزمان والمكان. وبالمعنى ذاته يتحدث «يونج» عن عالم «اللاشعور الجمعى» اللازمكاني؛ وهو عالم يمارس تأثيره في الحضارة من خلال تأثيره في النفس الفردية أو من خلال نفاذه فيها، ومن ثم فالفنان الكشفي – ولا فرق بينه وبين العالم المبدع – لا يبتكر المادة المعرفية بقدر ما تسيطر هي عليه وتمسك بزمامه. وفى ذلك يقول «يونج»: «حين تهيمن قوة الإبداع يتحكم اللاوعي في الحياة ويشكلها أكثر مما تتحكم فيها الإرادة الواعية، وتُدفع الأنا بقوة للسير في مجرى خفي، حيث تصبح مجرد شاهد عاجز على الأحداث، ويغدو نمو العمل وتقدمه هو قدر الشاعر، وهو الذي يحدد سيكولوجيته. وليس جوته هو الذي يُبدع فاوست، بل إن فاوست هو الذي يُبدع جوته (في إشارة إلى المسرحية التراجيدية المشهورة للكاتب المسرحي الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته Johann Wolfgang von Goethe)».

ورغم تعدد الدراسات السيكولوجية لظاهرة «الحدس» بعد «يونج»، إلا أنها جميعًا تؤكد وجود مثل هذا النوع من الرؤى الكشفية المباشرة، التي يصل الإنسان بمقتضاها إلى استنتاجات صحيحة وواضحة دون أن يستطيع شرح الأسس التي تقوم عليها أو بيان مقدماتها وخطواتها. ويمكن أن

نخرج من هذه الدراسات بتعريف عام للحدس بأنه عملية معرفية قبل منطقية Pralogical وبدائية ولا تحليلية ومباشرة، لكنه من جهة أخرى إحدى ملكات الإنسان الفكرية التي تعمل مجتمعة على طريق الكشف العلمي؛ فلا وجود لملكات أو قدرات عقلية منفصلة ومستقلة عن بعضها البعض.

ثمة خط مواز لهذا الخط السيكولوجي في فسيولوجيا المخ والأعصاب، حيث تشير الكشوف الحديثة إلى أننا ننقسم بالفعل إلى شخصين يعيشان داخل رؤوسنا، أو بتعبير أدق، في النصفين الكرويين الأيمن والأيسر من المخ؛ الشخص الأول يمثله النصف الأيسر الذي يُهيمن على اللغة، ويعمل في إطار الواقع اليومي وفقًا لقواعد المنطق؛ أما الشخص الثاني فيقطن النصف الأيمن، وهو بطبيعته «فنان»، يختص بالتذوق، واستلهام المواقف في جملتها دون النظر إلى تفصيلاتها. ويرتبط نصفا المخ فيما يبنهما بمعبرٍ من الألياف العصبية، فإذا استأصل هذا المعبر، فإن كلاً منهما يستمر في العمل منفصلاً عن الآخر. ومعنى هذا أن الكائن الذي تسميه «أنت» – أي ذاتك – يستقر في النصف الأيسر من مُخك. وهناك «أنت» أخرى على بُعد بوصات قلائل في النصف الأيمن، ولكنها صامتة. وعندما أُجرى عملية حسابية على الورق، فإنني أستخدم نصف مخي الأيسر، مع قسط مُعين من المعونة التي يقدمها النصف الأيمن من حين إلى آخر عن طريق الاستبصارات المُفاجئة. ويبدو أن هذه بصفة عامة هي الطريقة التي يعمل بها المُخ البشري: النصف الأيسر هو «الإنسان الأمامي»، الأنا التي تتعامل مع العالم؛ والنصف الأيمن عليه أن يُعبّر عن نفسه عن طريق النصف الأيسر. ومجمل الأمر أن النصف الأيمن يجد عناءً شديدًا في أداء وظيفته، ذلك أن النصف الأيسر في عجلة دائمًا من أمره، ولا يكف أبدًا عن معالجة المشكلات، ويميل إلى معاملة النصف الأيمن بشيءٍ من نفاد الصبر، وهذا هو السبب في أن الإنسان المتحضر يبدو أنه لا يملك من «الحدس» إلا أقله.

من الأمور ذات الدلالة في هذا الصدد أن المخ الأيسر لديه إحساس قوى بالزمان، على حين أن الأيمن لا يملك شيئًا من هذا الإحساس، وكأن العقل حين تغشاه لحظات «الحدس» يستحضر فجأة واقع زمان آخر ومكان آخر يضفي المعنى والقيمة على مدركات العالم الزمكاني المحسوس. وأيًا كانت ماهية هذا الواقع الآخر، فليس أمامنا إلا أن نُسلم بوجوده إزاء تجربة الاستبصار المفاجئ للمخ الأيمن، تلك التي لابد وأن كل فرد منا قد مرَّ بها في لحظات العزلة والتأمل، فإذا ما اعترض أحدهم بأننا نتحدث عن عالم وهمي لا يمكن التحقق منه، أحلنا إليه كثرةً من المسميات التي تتحدث عنها النظريات العلمية دون دليل عيني مباشر، اللهم إلا آثارها – كالموجات اللاسلكية، والشحنات الكهربائية ... إلخ – فإذا كان هذا هو حال النظريات العلمية وكائناتها، فلِم لا نُسلم بوجود عالم للكليات، ونحن نستشعر آثاره بقوة من حين إلى آخر؟

***

▪ **توثيق المقال بنظام APA:**

عثمان، صلاح (١٩، ٢١ يونيو ٢٠٢٢). «المعرفة الحدسية المباشرة: نفسيًا وفسيولوجيًا». أكاديمية بالعقل نبدأ، القاهرة. تم الاسترداد بتاريخ ٢ أكتوبر ٢٠٢٢ من:

https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/المعرفة-الحدسية/

https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/كارل-يونغ/

APA Citation:

Osman, S. (عثمان، ص) (2022, June 19). Post-Truth World (المعرفة الحدسية المباشرة: نفسيًا وفسيولوجيًا). Retrieved October 2, 2022, from https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/المعرفة-الحدسية/

Osman, S. (عثمان، ص) (2022, June 21). Post-Truth World (المعرفة الحدسية المباشرة: نفسيًا وفسيولوجيًا). Retrieved October 2, 2022, from https://mashroo3na.com/إصدارات/مقالات/كارل-يونغ/

***